العرب
الأحد 2021/03/21
السنة 43 العدد 12006

الفلاسفة يثيرون جدلا حول التلقيح

الفايروس.. كائن أسطوريّ لا يني يتخذ أشكالا أكثر خطورة

عند استشـراء الجائحة وجد الإنسان نفسـه أمام ثلاثة حلول: الحصانة الجماعيـة أو العـلاج أو التلقيح. فأمّا الحصانـة الجماعية فقد خاب من جرّبهـا، وأمّـا العلاج فلم يظهر حتى الآن أيّ دواء ناجع، ولم يبق سـوى اللقاح الذي بدا للعارفين أنه الوسـيلة الوحيدة لمقاومة كوفيد. ولكن تلقيح الناس ليس بالسـهولة التي نتصوّر، فقـد عارضته فئات كثيرة، فيما دعا بعضهـم إلى التريث قبل الإقدام على خطـوة لا يعلمون عواقبها. فهل من حـق الفرد رفض اللقاح باسـم حرية الاختيار، أم أن رفضه ذاك سـوف يشكل خطرا على المجموعة ما قد يرغم السلطات المعنية على جعل التلقيح إجباريّا؟ فما رأي الفلاسفة في هذه الإشكالية؟

التخوف من التلقيح يصيب الجميع

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

التردد الذي يسـود شرائح مجتمعية كثيرة، بين راض بالتلقيح ورافض إيّاه، يحيـل إلى تعارض فلسـفي قـديم بين من يعتقد أن الطبيعية الإنسـانية ثابتة تمثل معطى وجبرية ولا يمكن المسـاس بهـا، وبين مـن يؤكد أن ثمـة ليونة في الذاتيـة البيولوجيـة ينبغـي تطويـر إمكاناتها. فهل هذا هو سـبب انقسـام الناس بين مؤيـد للقاح ومناهض له، أم أن ثمّة أسـبابا أخـرى كنظرية المؤامرة التـي سـاهمت الإنترنـت في توسـيع دائرتهـا عالميا حتى وجدنا من يعتبر أن الفايروس صنع مخبريا لغايات تجارية؟

الفلاسـفة المحدثون الذين يواجهون كبقيـة خلق اللـه هذه الأزمـة الصحية هـم أيضـا بشـر يواجهون مـا نواجه، وردود أفعالهـم لا تختلف عـن ردة فعل الإنسان العادي أمام اللقاح، فإما القبول بلا نقـاش لغياب البديـل، وإما التريث حتى تزداد الأمور وضوحا، وإما الرفض التامّ.

الخوف من التلقيح

لا شيء يسمح بالقول إن اللقاح ضد فايروس كورونا قد يكون خطيرا، حسب الفيلسـوف الألماني ماركـوس غابريال، والذين يؤمنون بذلك ويرفضون التلقيح هم إمّا غير مطلعين كما ينبغي أو سيّئو النيّة. هؤلاء ليسـوا أحـرارا في قرارهم لأن سـلوكهم هذا سـوف يعطـل نجاعة حمـلات التلقيـح، ويمنـع بلـوغ عتبة الحصانة الجماعية. ومن ثمّ لا سبيل إلا بجعل التلقيح إجباريا.

وفـي رأيـه أننا قد نتفهـم احتراس مـن لا يحيط علما باللقـاح ويرفض عن جهـل أكثر مما يرفض عـن خوف، ولكن من يرفض برغم حسـن اطّلاعه، فموقفه مـدان أخلاقيـا، لأن الحصانة الجماعية أهم من هـوس كل فرد بالسـيطرة على جسده، وحصر حق تقريـر المصير في إبرة أمر تافه قياسا بالآثار المدمرة التي قد يسببها فشل حملة التلقيح.

ويؤيـده الفيلسـوف المغربـي علي بنمخلوف، فهو يرى أن مسـألة الاختيار ترتكز على مبدأ الرضا: بمَ أرضى، وكيف أرضـى. وهـو مبـدأ أدرج فـي القانون الفرنسـي عام 2002 لوضـع حدّ للأبوية الطبيـة التـي تعتقـد أن الطبيب يعرف ما يصلح بمرضاه خيـرا منهم. فالرضا يشـترط صرامة إيثيقية أساسية ما دام المـرء يمارس اسـتقلاليته، ولكن ينبغي أن ينجم عن حرية ودراية، فلا استقلالية من دونهمـا. ومن ثَمّ فإننـا نختار بناء علـى ذلك. حتى القـرارات الفردية تُتّخذ بحسـب العوامل الاجتماعية، وغالبا ما يكـون أولئك الذين يطالبـون بالاختيار بمفردهم أكثر الناس قابلية للتأثر بآراء الآخرين في الواقع.

ولذلك يلح المفكر العربي على توعية الناس وتربيتهم على حسـن اسـتعمال الاسـتقلالية حتـى يميّـزوا المعلومـة الصائبة ممّا ليسـت كذلك. ومن ثَمّ فهو يحذر من الخلط بين أنواع الشـك. فلئن كان الشـك العلمي محمـودا، فإن الريبة والتحدي والظنون تسيء أكثر مما تنفع، مثلما يحذر من استعمال الاستقلالية في إلحـاق الضـرر بالآخريـن، وخاصة في هذه الأزمة الصحية، وفي مجال الصحة العامة سـيكون نجـاح اللقـاح مرهونا بالطريقة التي سـوف يلقاه بها المجتمع كرهان للعدالة الاجتماعية.

أما الفيلسـوف الفرنسـي فرنسيس وولـف فلم يخـف خجله من بلـده الذي يفاخر بأنـه أنتج الأنوار ضـدّ الخرافة والشـعوذة والتطيـر، وأنجب باسـتور الذي ابتكر التلقيح، وأقام نظاما صحيًا متطـورًا، ولكنـه اليـوم أكثـر البلدان احتراسـا مـن التلقيـح. وفـي رأيه أن طـب التلقيح أفضل ما أبدعه الإنسـان، فهو ناجـح وغير مكلّـف وماكر بالمعنى الفلسفي للكلمة، لكونه يستعمل أسلحة الطبيعة ضدّ نفسـها، فيقي الشرّ بالشرّ بعـد أن يحوّلـه إلـى خير، وهـذا يذكّر بالـ"ميتيـس" لـدى الإغريـق القدامى، بمعنى الذكاء الماكر.

كمـا أعرب وولـف عن غضبـه ضدّ التيـار المعـادي للقاح الـذي لا يقتصر على القائلين بنظرية المؤامرة وحدهم بل يتعداه إلى دعاة اللاعقلانية والمناهضين للأنسـنة، وذكّر بأن العلاقة التي ربطها الحداثيون بالطبيعة تقوم على تصورين متناقضين، أولهما ظهر في القرن الثامن عشـر ويتمثـل فـي إنسـانية منتصرة قادرة علـى قهر الطبيعـة بفضل الذكاء البرومثيوسي، وهو تصور بسيط نوعا ما، رغم أنه جاءنا بالأسبرين والبنسيلين والمضادات الحيوية والعلاج الكيميائي وزرع الأعضـاء والتخديـر والتصويـر بالأشـعة واللقاحـات، أي كل ما سـمح بإطالـة العمـر والعيـش فـي مَنَعة من الأدواء الذي فتكت بالبشرية طوال قرون، ولكن هذا التصور فقد معناه بعد الوعي الإيكولوجي الحديث.

وثانيهمـا، وهو لا يقل تبسـيطا عن الأول، أن الإنسـان برغبتـه اللامتناهية في القوة والعظمة هو السـبب الرئيسي للكـوارث، ومنها هـذه الجائحـة لأننا تخيلنا أننا صرنـا محميين من المخاطر الطبيعية، ولم نعـد نتصور أن الطبيعة خطيـرة. واليـوم إذ نقف ضـدّ اللقاح، فلأننا نخاف من الإنسان أكثر مما نخاف من الطبيعة، وكأن الخوف من المرض أقلّ من الخوف من العلاج، وننسى أن اللقاح قضى على أغلـب الأمراض الخطيرة من الحصبـة الألمانيـة إلى الجـدري مرورا بالكُـزاز والسّـعال الديكـيّ والحصبة وشلل الأطفال.

كذلـك الفرنسـية كاتريـن مالابـو، المتخصصة فـي علم ما فـوق الجينات (Epigenetics) أو علـم التّخَلُّق المتعاقب وعلم جديد يُعنى بدراسة التغيرات التي تحـدث لنمط ظاهري وراثي لأسـباب لا تتعلق بتغير تسلسل الـ"دي.أن.أي" فهي لا تفهم مقاومة كثير من البشـر لحملات التلقيح. صحيـح أن مثل هذه اللقاحات تسـتخدم لأول مرة في التاريخ، فاللقاح فـي العادة مصل يحتـوي على فايروس عاطل أو ميّت، ولكن المخاوف التي تحوم حـول إمكانية تأثير هـذا اللقاح الجديد علـى الجينوم، أي على الحمض النووي الريبـوزي منقـوص الأكسـجين (DNA) ليس لها مـا يبررها، لأن الـ"آر.أن.أي" لا يحوّر الـ"دي.أن.أي" بـل يعمل على سطحه (والسـابقة الإغريقية epi تعني فوق، خـارج، حول) ولا يدخله، وتشـبّه مالابو العملية بترقيم موسـيقي يعزفه من يشاء كما يشاء دون أن يحوّر الأصل.

وهـي إذ تؤكد أن اللقاحات ليسـت علاجـا جينيا، فإنهـا تعتقد أن الخوف قـد يكتسـي شـرعيته إذا ثبـت أن تلك التحـولات الجينيـة السـطحية قابلـة للانتقال إلـى الخلفة، وهو ما ذهب إليه الفرنسي جان باتيسـت لامارك (1744 – 1829) الذي بيّن أن ثمـة تنويعات تمسّ بعض الأفراد يمكن أن تنتقل إلى الأجيال اللاحقة، دون أن تسـيء إلى النوع، على هامش التطور كما عرّفه داروين.

وتعتـرف مالابو بوجود مشـكلتين في هـذه الحالة: الأولى، احتمال التأثير على النسـل إذا لم نحكـم التصرف في هذا النوع من اللقاح، والثانية أن الـ"آر. أن.أي" هشّ وغير ثابت، ما يحتّم حفظه في درجة حرارة منخفضة جدًا، وهذا أمر سـتنتج عنه بالضرورة صعوبات. تقول مالابو إننا نشهد إرهاصات ثورة جديدة بيوتكنولوجية سـوف تسمح بإمكانات طبية واسـعة، ولا بدّ أن يكـون العلماء أكثر حضورا كي يشرحوا للناس طبيعة اللقاح الجديد ويطمئنوهم.

غير أن فيليـب هونمان، المتخصص في فلسـفة العلوم، يتسـاءل ما إذا كان اللقاح ضدّ فايروس كورونا يمنع تطور المرض فقط أم يقي أيضا عدواه، فالمخابر التي أنتجت اللقاحـات المتوافرة اليوم (مودرنا، فايزر، أوكسـفورد وسبوتنيك) لم تنشر مجمل معطياتها، ولا تزال ظلال كثيرة قائمة، ويركز على ثلاث نقاط:

أولا، إذا كان اللقـاح يمنـع تطـور المرض فقط ولا يمنع انتشاره، فإن رهان الغيرية يسـقط، لأن اختيار عدم التلقيح يصبح أمرا شـخصيا وليد قرار يخص الفرد، ولا يشـكل خطرا علـى غيره. أما إذا كان اللقـاح يمنع الداء والعدوى في الوقت نفسه، فالأمر يختلف، لأن المسألة لا تخـصّ الفرد وحـده عندئذ بل تخص كافة أفـراد المجتمع، لأنهم سـينتفعون بأثر حماية اللقـاح لكل فرد. وهنا يقول هونمان "نجد أنفسـنا أمـام مفارقة: إن تمّ تلقيح جميع النـاس مع آثار جانبية نادرة، فمن مصلحتي ألا أخضع للتلقيح، بـل أغتنـم تلقيـح الآخرين، ولكـن إذا فكّـر كل فرد بهـذه الطريقة، فلن يخضع للتلقيح أحد، وبذلك تتواصل الجائحة، ولا مجـال لصدّ تبعات هـذه المفارقة سـوى بالدعوة إلى تحمل المسؤولية أخلاقيا".

ثانيـا، توجـد تقنيتـا تلقيـح في الوقت الراهن، واحدة كلاسـيكية تقوم على حقن بروتينـات منقّاة من انعكاس الفايروس في الجسـد، شأن اللقاحات المعروفـة، والثانيـة حديثة وتتمثل فـي حقن شـيفرة مـن الحمض النووي الريبـوزي (RNA) في الجسـد لكـي يُولّـد داخـل الخلايـا عنصـرا خارجيا قادرا على تنشـيط جهـاز المناعة، حتى يمكن إقحام إجابة لقاحية واقية.

وهنا يقـول هونمـان "نكـون أمام التعـارض المعهـود فـي الفلسـفة أو الاقتصـاد بـين المخاطـر والارتيـاب. بخصـوص اللقـاح الكلاسـيكي، تمّ احتسـاب احتمـال المخاطـر والآثـار الجانبيـة حسـب معطيـات إحصائية معلومـة. أمّـا فـي مـا يتعلـق باللقاح الجديـد مـن نـوع 'آر.أن.أي' قـد تكون النتائـج مذهلة ولكننا ندخل في الشـكّ لأننا لا نملـك أي معطى عن تطبيق مثل هذه التقنيات على الإنسان".

> المواقف من التلقيح بين أخذ وردّ، غير أن استفحال الداء قد يدفع الناس إلى القبول به مكرَهين

ثالثـا، لا أحد يعرف كم وقتا سـوف تحمينا تلـك اللقاحات مـن كوفيد. هنا أيضـا احتمـالان، إمـا أن نكـون أمام سيناريو شـبيه بالحصبة، فتكون حقنة واحـدة كافيـة للوقاية مـن المرض مدى الحيـاة. وإمـا أن نكون أمام سـيناريو شـبيه بالإنفلونـزا، عندئـذ ينبغـي تجديد التلقيح كلّ سـنة أو سـنتين، لأن الفايروس بصدد التحول بسرعة، ولو أن تحول فايروس الإنفلونزا أسرع.

وفـي غيـاب تلـك المعطيـات يعتقد هونمـان أن مـن المستحسـن الانتظار قليـلا، إذا لم يكـن الفرد من الشـريحة العمرية الهشّة، أي من هم فوق السبعين.

نظرة مختلفة

بيد أن هذا لا يطمئن مفكرة أخرى هي أنجيليك ديل ري التي ترى أننا في ظرف عُلّق فيه مبدأ الحذر بدعوى أن الجائحة ولّدت حالة طارئة، ولا بدّ من التعجيل بالتصدّي لكوفيد، وبذلك تمّ تقديم الوقاية على واجـب الحـذر، رغـم أن لجنـة علمـاء مسـتقلة عدّدت المخاطر التـي يمكن أن تنجم عن اللقاحات الحديثة.

كما لاحظت أن الهيئة العليا للصحة خططت لحملة التلقيح واشترت جرعات اللقاح رغم أن المخابر لم تنشر شيئا عن معطياتهـا. عملية الشـراء العمياء هذه إشـكاليةٌ بالنسـبة إليها: إذا تمّ شـراء مئات الملايين مـن اللقاحات، فذلك يعني أن مبالـغ هامة من المال العـامّ صرفت، ما قد يفسـر في نظرها وجود مؤشرات خطيـرة دفعت المسـؤولين إلـى التلكؤ، وكأنهم أدركوا أنهم تسـرّعوا في اقتناء لقاح لا يعرفون عنه شيئا. وفي رأيها أن هذه الجائحة فرصـة للتفكير في صحة الإنسـان بطريقة مغايـرة، والانتقال من نمـوذج قتالي ننظر فيـه إلى الفايروس كعـدو ينبغـي سـحقه ومحقـه بتمكين الجسـد من الأسـلحة الضرورية، إلى نمـوذج بيئي ننظر فيه بشـكل أوسـع إلى تفاعلات جسـد الإنسان مع العوامل المؤدية إلـى المرض والبيئـة، عملا بما صار يعـرف بالأكسـبوزوم exposome وهو مصطلح صاغـه العالم البريطاني كريستوفر وايلد، ويعني مجمل العوامل البيئيـة التـي يتعرض لها الجسـم من المخاض إلى الموت.

ذلـك أن التلوث بكل أشـكاله يؤدي إلى تكاثر الأمـراض المزمنة، وأن تدمير النُظـم البيئيـة الأرضية يزيـد المخاطر الوبائيـة، وهو مـا أكّده مؤخـرا المنبر الحكومـي الدولي للعلوم والسياسـات في مجال التنـوع البيولوجي وخدمات النظم الإيكولوجية في تقريره عن علاقة بين انقراض الكائنـات الحية والتهديد الوبائي.

ولذلـك فهي تدعو إلـى التريث حتى تنشـر المخابـر نتائجهـا، ونتأكـد من حقيقـة هذه اللقاحات وجدواها وآثارها الجانبيـة، وتقـول "أخشـى أن يـؤدي التركيـز المفـرط على حمـلات التطعيم هذه إلـى الاعتقـاد بأننـا توصلنا إلى حـلّ معجز على المـدى القصير، والحال أن وضع البشـرية في العالـم هو الذي يحتاج إلى مراجعة".

نفـس القلـق أعربـت عنه فانيسّـا نوروك، أستاذة النظرية السياسية والإيثيقية بجامعة باريس 8، حيث قالـت إن بعضهم يعتقد أننا نجهل اليوم الآثـار الجانبية المحتملة للّقاح رغـم التجارب التـي أجريـت، ولكننا ننسى في الوقت نفسه جهلا آخر لا يقل أهمية عن الأول، وهـو الآثار الجانبية للمـرض وعواقبه على المـدى البعيد، ولاسيما على المستوى العصبي.

وفي رأيها أن من الأفضل أن ننظر إلى المسألة من زاوية العناية (care) وهي مقاربة اقترحتها عالمة النفس الأميركية كارول جيلّيغان في نهاية القرن الماضي، حتى نتحمل شكل الطارئ ونتخلص من وهم السيطرة المطلقة، ونغادر الإطار التقليدي للمسؤولية، فننتقل من مفهوم المسؤولية الجوهرية إلى المسؤولية العلائقية، ونتأمل شبكة العلاقات التي جعلت مثل هذه الجائحة ممكنة. هذه المقاربة تتوجه إلى المستقبل وليس إلى الماضي، وتلزمنا بخوض أعمال مشتركة للتصرف في هذه المشاكل بدل البحث عن أكباش فداء.

بين أخذ وردّ

أمّـا غيوم لو بلان أسـتاذ الفلسـفة السياسـية والاجتماعيـة فـي جامعـة باريـس ديـدرو فيعتبـر الامتنـاع عن التلقيح نوعا من إرادة الفرد المشـروعة في اسـتعادة سلطته على جسده، ونوعا من الأنانية أيضا يعكس اسـتهانة الفرد بارتباطه بأفراد المجتمع، ويسـتغرب أن يعلـن بعضهم رفضهـم للتلقيح والحال أنهم ملقّحـون منذ صغرهم ضد شـتى الأمـراض. ويتسـاءل "ما هـو اللقاح؟ ليس سـلاحا سـيدمّر تهديدا بيولوجيا ويجعلنا أسـياد الكائنـات الحية. كلا، إنه جهاز يسـمح للإنسـان بـأن يغامر فـي وسـط يحتـوي علـى فايروسـات وميكروبات. ومن ثَمّ لا بدّ من النظر إليه من زاوية فلسفية كشكل من التكيف بدل الامتلاك أو السيطرة، فنحن نؤلف بيننا وبين الفايروسـات لنكوّن منطقة تعايش وتجاور".

ويضيـف "صحيح أننـا مع لقاحات مـن نـوع 'آر.أن.أي' ندخـل عصـرًا جديـدًا مـن لقاحـات غير مسـبوقة، لم تُختبـر مـن قبل. بالنسـبة إلـى جورج كانغويلهـم (1904 – 1995)، فيلسـوف الإبسـتيمولوجيا والطب، تبدو التقنية امتـدادا للحياة في خدمـة الحياة. هذا هـو بالضبط ما نحاول القيام به مع هذا الابتكار. من وجهة نظري، لا يوجد سبب مقنع لمعارضته طالما ظلت البروتوكولات الأمنية صارمة. هـذا لا يمنعني من فهم المشـككين والمحترسين، القلقين إزاء هذه التقنيـات الحيويـة الجديـدة أو الذين يريدون الانتظار لمعرفـة الآثار الجانبية قبل اتخاذ قرارهم، طالما أن هذا لا يقودنا إلى رؤية تآمرية".

ولا تـزال المواقف بين أخـذ وردّ، غير أن اسـتفحال الـداء وتحوّلـه مثـل كائن أسطوريّ لا ينـي يتخذ أشكالا أكثر خطورة، ويمعن في شـلّ الاقتصاد العالمي قد يدفع النـاس إلى قبول التلقيح مكرَهين، سـواء بدافـع الخـوف أو بقـرارات حكومية قد تُفرَض بالقوة في البلدان الفقيرة والنامية، وتفرض بطرق غير مباشـرة فـي البلدان الديمقراطيـة، كأن تجعـل الأسـفار فـي الداخل والخارج مشروطة بوثيقة تلقيح.

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

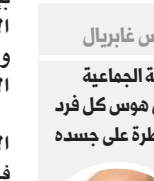
مارکوس غابریال
الحصانة الجماعية أهم من هوس كل فرد بالسيطرة على جسده

علي بنمخلوف
من يطالبون بالاختيار بمفردهم أكثر قابلية للتأثر بآراء الآخرين

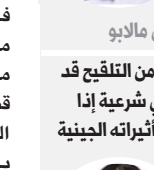
كاترين مالابو
الخوف من التلقيح قد يكتسي شرعية إذا ثبتت تأثيراته الجينية

أنجيليك ديل ري
هذه الجائحة فرصة للتفكير في صحة الإنسان بطريقة مغايرة

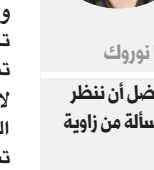
فانيسّا نوروك
من الأفضل أن ننظر إلى المسألة من زاوية العناية

غيوم لو بلان
الامتناع عن التلقيح إرادة الفرد المشروعة في استعادة سلطته